ما الذى نختاره لبيت المقدس : نحن بين أمرين !

د . سيد نوفل

أكتوبر

ف عام ١٩٥٠ اتفقنا نحن العرب على انتظار الزمن ليحل مشاكلنا وقررنا الاحتفاظ بالدويل لمنطقة القدس الكبرى فى وضعه النظرى الدولى حتى تتاح الفرصة لتحقيقه وذلك بعد أن تعذر علينا تنفيذ مقررات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الوصاية بهذا الدويل وكان مصدر التعذر الافتقار إلى الخطة المشتركة الفعالة من ناحية ، ومعارضة الحكومة الإسرائيلية والملك العربى الأردنى عبد الله من ناحية أخرى وقد نجد لهذا سندا ف فن السياسة وحرفتها فمن أسباب السياسة الاحتفاظ بالمشاكل فى حجمها دون إتاحة الفرصة لإضافة تعقيدات جديدة عليها فذلك من شأنه الاحتفاظ بالحلول الممكنة صغيرة أو ميسرة على قدر المشاكل ذاتها

لكن المشاكل القائمة بين دولتين أو أكثر لا تحل فى الواقع حلا جذريا .. إنما تتبدل على الأيام والممارسات صورها وأشكالها . وتتحول من حال إلى حال .. وبمقدار هذا التحول تعقيدا أو تبسيطا تتعذر الحلول أو تتيسر . كما أن خيوط القضية وأسبابها لم تكن كلها فى الأيدى العربية حتى تحركها أنى شاءت . وتيسير للأيام أن تمكن للحل العادل للقضية ..

ولهذا كان من الخطأ الفادح أن نتعامى عن الخاطر المتصلة المتجددة ، وأن نتناسى طرف المعادلة الآخر الذى لا ينتظر أبدا وهو إسرائيل ..

فقد استغلت الزمن لترسيخ أقدامها فى القدس الغربية تحديا لقرارات الأمم المتحدة المتجددة كل عام وللشرعية الدولية .. مثلما استغلت الزمن دائما لتوسيع رقعة دولتها ولاحتلال جميع المناطق العربية الواسعة التى قررت الأمم المتحدة أن تكون منزوعة السلاح أو غير مسكونة ..

وجاء العدوان الإسرائيلى عام ١٩٦٧ لتحتل البقية القليلة من فلسطين وفى مقدمتها القدس الشرقية أو العربية .. وبهذا لم يصبح هما فى القدس واحدا وهو القدس الغربية ، إنما أصبح همين هما القدس الشرقية والغربية معا !!

فلم تمض ساعات قلائل على دخول الجيش الإسرائيلى القدس الشرقية حتى استقر لإسرائيل احتلالها ، مثلما استقر احتلالها لسائر الضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء .. ويسر الاحتلال الإسرائيلى الحين للقدس الشرقية الالتزام العرفى بالشرعية الدولية ..

فلم يدخل الأردنيون العرب السلاح إلى الضفة الشرقية احتراما لقرارات الأمم المتحدة .. على حين جعلت إسرائيل الضفة الغربية قلعة مسلحة ، صارية عرض الحائط بهذه القرارات .. كأنما كتبت علينا الهزيمة من داخلنا ، وكتب علينا تعطيل قوانا وإمكاناتنا الكبرى ..

■ ■ ■

ومازلت أذكر صباح السابع من يونية ، بعد أن حم القضاء أو كاد فيما بقى من فلسطين العربية .. فقد استمعت إلى نداء مفجع موجه من الملك حسين إلى أهالى القدس العربية والضفة الغربية .. قال فيه نصا : « اقتلوهم حيث وجدتموهم .. بأيديكم بأطافركم بأسنانكم !! إن إخوانكم فى العروبة والإسلام معكم فى هذه المعركة البطولية التاريخية !! » .

لكن الأيدى والأظافر والأسنان لا تجدى فى الحرب المعاصرة المتطورة .. كما أن النجدة العربية والإسلامية لم تتيسر .. ولم تتجل المعركة – التى لم تنشب – عن بطولة وشرف ، إنما انجلت عن هزيمة وعار ..

■ ■ ■

وبدأت أعمال التهويد للقدس الشرقية على الفور ، ومضت إلى غايتها بلا تردد ولا هوادة .. رفعت الحواجز والأسوار بين القدسين القديمة والحديثة .. وهدمت معالم تاريخية فى القدس القديمة ، وأقيمت مكانها مساكن للاستيطان اليهودى ..

وتوسلت إسرائيل فى أعمالها العدوانية بثلاثة قوانين سنتها لإتمام التهويد للمدينة المقدسة العربية ، ولإدماج شطرى القدس فى بلدية واحدة ..

ويقضى الأول بتطبيق نظم إسرائيل التشريعية والإدارية والقضائية فى القدس العربية .. ويتيح الثانى الأماكن المقدسة فيها بلا قيد ولا تدبير . ويقضى الثالث بتوسيع اختصاصات البلديات بإجراءات استثنائية وبلا وسائل تشريعية ولا إدارية ..

وصاحب ذلك تسمية الشوارع والميادين بأسماء عبرية بدل الأسماء العربية ، وتحويل المصارف العربية إلى مصاريف إسرائيلية .

الملك فيصل والملك الحسين الثانى قد قاما بدور كبير فى المؤتمر الإسلامى الأول بالرباط ولكن بلا فائدة

وتطبق جميع قوانين المعاملات والضرائب والمهن الإسرائيلية على القدس العربية ...

وكانت فاتحة المأساة حريق المسجد الأقصى صباح الخامس والعشرين من أغسطس (آب) لعام ١٩٦٩ .. فبعد ثلاث ساعات ونصف الساعة التهم الحريق منبر المسجد الرائع الذى شيده الفن المصرى ، لعهد صلاح الدين الأيوبى ، آية فى الإبداع .

كما التهم الحريق المشرق بآياته القرآنية وزخارفه ونقوشه ، والقسم الجنوبى من سقف المسجد .. وحطم زجاج القبة وشوه قسمانها ..

وتنادينا جميعا – نحن العرب بملايينا الثلاثة والعشرين ، والمسلمين بملايينا السبعمائة – بالويل والثبور وعظائم الأمور .. والتهبت العواطف والمشاعر ، وقدر المغالبون أنها القاصمة لظهر الاحتلال والمحورة ليت القدس ..

والعقد مؤتمر القمة الإسلامى الأول بالرباط فى ١٩٦٩/٩/٢٢ .. وشجبته الدول العربية كلها عدا سورية والعراق المقاطعين له ، وحضرته سبع عشرة دولة إسلامية .. ورغم جهود الملك فيصل والملك الحسن الثانى فإنه لم يأت بحصاد مذكور .

فقد حمل إسرائيل مسئولية الحريق ، ودعا إلى السلام العادل فى الشرق الأوسط ، وأكد الإصرار الإسلامى على تحرير القدس العربية .

لكنه رفض الموافقة على اقتراح عربى بقطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية بإسرائيل .. كما تحفظت أربع دول إسلامية ذات شأن على بعض عبارات البيان ..

ومن بعده عقد مؤتمر القمة العربى بالرباط كذلك فى ١٩٦٩/١٢/٢٢ .. وعجز بسبب الخرق العربى عن اتخاذ أى قرار فى أزمة الشرق الأوسط عامة وفلسطين والقدس خاصة .. وانتهى برجاء الملك المغربى الحسن الثانى والرئيس اللبنانى شارل الحلو ، فى مستقبل عربى أفضل !!

■ ■ ■

وكان ذلك أمرا طبيعيا .. فهزيمة ١٩٦٧ كانت لاتزال تنتج آثارها هدما .. وحرب الاستنزاف المصرية قد توقفت .. وأعمال المقاومة الفلسطينية قد تلاشت ، وأعلن موشى ديان – وزير الدفاع الإسرائيلى حينذاك – أنها قد انتهت إلى غير رجعة ، وما درى أن المستقبل يحمل مالا يقدره المقدرون .. وهكذا عاشت القدس العربية وسائر أراضينا المحتلة فى ظلمات اليأس والقنوط ست سنوات حسوما ..

■ ■ ■

وأعادت حرب رمضان عام ١٩٧٣ إلى الأمة العربية الثقة بنفسها ، وأكسبتها تأييدا دوليا عاما غير مسبوق فى تاريخها الحديث ..

ولو مضت الأمور كما ينبغى أن تمضى ، ولم تفرق بين العرب الخلافات الداخلية والفتن الخارجية ، ولم يخوضوا المعارك السياسية والقتالية ضد بعضهم بعضا ، إذن لتم تحرير الأرض العربية المحتلة ، وفى مقدمتها القدس ، ولقطعنا فى طريق السلام والحرية والتنمية أشواطا واسعة ..

■ ■ ■

ومهما يكن من أمر فإن حرب رمضان قد أعقبها فى الشهر التالى مؤتمر القمة العربى بالجزائر .. وفيه تجدد الالتزام العربى بتحرير القدس الشرقية ، وإن لم يتعرض لعدم شرعية الإجراءات الإسرائيلية المناقضة للشرعية الدولية ، التى اتخذتها إسرائيل فى القدس العربية .

وهى الإجراءات التى كررت الأمم المتحدة إدانتها ، وكانت سببا فى رفض ١٤٠ دولة من أعضائها الإخلاء الإسرائيلى المتصل على

شارل حلو مستقبل عربى أفضل !

جولدا كوهين زعزعة مركز إسرائيل فى القدس ذاتها

موشى ديان أنهى أعمال المقاومة بعد هزيمة ٦٧

نقل سفاراتها من تل أبيب إلى القدس العربية .. ولم تخضع سوى ١٢ دولة للضغوط الإسرائيلية .

وفى الأسبوع الماضى أعادت سبع منها سفاراتها إلى تل أبيب ، وتسير بقيتها فى طريق الإعادة ..

■ ■ ■

وكذلك تأكد الموقف العربى من الالتزام بتحرير القدس الشرقية فى القرارات العربية على مختلف المستويات منذ قمة الرباط عام ١٩٧٤ ..

ولا ريب أن المقاومة الفلسطينية قد استعادت مكانتها الوطنية والدولية ، وأصبحت قوة لا محال للمراء فيها .. لقد تعرضت لأعمال إبادة إسرائيلية متصلة منذ عام ١٩٦٧ .. كما تعرضت للكوارث على أيد عربية من الأردن وسورية ولبنان وليبيا وغيرها ..

ومع ذلك فقد تم الإجماع الدولى على الاعتراف بها .. وهو اعتراف لم يكن أحد يتصوره قبل الحرب والسلام المصريين .. بل إن المقاومة الفلسطينية قد أثبتت سيطرتها التامة على الأرض الفلسطينية المحتلة ، والعجز الإسرائيلى التام عن مقاومة هذه السيطرة ..

وفى جهود السلام التى تبذل حاليا ينعقد الإجماع العربى الإسلامى خاصة ، والإجماع الدولى عامة ، على أن قضية فلسطين والقدس العربية هى جوهر النزاع العربى الاسرائيلى .. وكان الموقف المصرى فى هذا المجال موقفا جديرا بمصر العربية ودورها التاريخى فى قضية فلسطين ..

ومن ذلك تبدو الحقائق الآتية :

أولا – إن احتلال إسرائيل للقدس الغربية والشرقية معا لا يستند إلى حقوق وطنية ، كما أنه يتحدى الشرعية الدولية .. فقد احتلت إسرائيل القدس الغربية فى حرب ١٩٤٨ ، ولم تعترف بهذا الاحتلال ولا بما أعقبه من إجراءات الأمم المتحدة ، بل أدانته مرارا ، ورفضت الاعتراف بالقدس الغربية عاصمة لإسرائيل وأصرت ١٤٠ دولة أجنبية على رفض نقل سفاراتها إلى القدس الغربية منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن ..

كما احتلت إسرائيل القدس الشرقية أو العربية فى حرب ١٩٦٧ العدوانية .. وادانت الأمم المتحدة وسائر المحافل الدولية هذا الاحتلال مرات كثيرة ... وظهر التأييد العالمى التام للموقف العربى منذ حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، كما تضاعف منذ مبادرة السلام عام ١٩٧٧ .. ثم ظهر أروع ما يكون فى هذه الأيام ..

ثانيا – إن قانون جولدا كوهين ، أو مناحم بيجين ، العدوانى على القدس العربية ، وزعزع مركز إسرائيل فى القدس الغربية ذاتها .. فأحدثت الدول القليلة التى اعترفت بها وظلت سفاراتها إليها ، توانى الانسحاب وتنقل سفاراتها إلى تل أبيب ..

وذلك هو ما دعا أبا إيبان وشيمون بيريز وغيرهما من زعماء إسرائيل والصهيونية العالمية وجمهرة الصحف الإسرائيلية وإجماع الرأى العام العالمى ، إلى ادانة القانون العدوانى على القدس العربية ..

ثالثا – إن هذا القانون العدوانى على القدس العربية لم يكن القانون العدوانى الأول عليها ، انما كان الأخير فى سلسلة من القوانين العدوانية المتصلة منذ احتلال القدس العربية عام ١٩٦٧ .. ومن شأنه المزيد من إضعاف الموقف الإسرائيلى وتهيئة المناخ الصالح للعمل العربى المشترك ..

رابعا – إن قوى الرفض العربية فى ليبيا وسورية واليمن الديموقراطية وبين الفلسطينيين ، فضلا عن القوى المستقلة والمتطلعة فى المغرب والمشرق ، هذه جميعا تعمل فى هذه الأيام لتكريس المأزق العربى ..

ومن المتعين على الحكومات ذات المسئولية فى السعودية والكويت وسائر الخليج والمغرب والسودان ، أن تتصدى لما بعد أن تأكد اليأس من أن المخاتلة أو الترضية يمكن أن تنتج أيا من الثمار النافعة ..

خامسا : إن الدعوة الفلسطينية الحالية تدور على أن التخطيط العدوانى ضد العرب ، استهدف عزل مصر عن العالم العربى .. ومع ذلك يعمل الكثيرون لتوسيع الهوة بين الدول العربية ، ولا يحملون المسئولية الوطنية ، إنما يأخذون جانب المعتدين على الحقوق العربية ..

سادسا – إن الحل العادل لقضية القدس الشرقية والغربية معا يقوم على اختيار أحد أمرين لا ثالث لهما ..

الأول هو الرجوع إلى تدويل منطقة القدس كلها ، وأن يكون الوجود العربى السياسى والعسكرى والأمنى فى المنطقة العربية مساويا تمام المساواة للوجود الاسرائيلى ..

والآخر هو تحرير القدس العربية وضمها إلى الضفة الغربية بعد تحريرها .. وأن يكون الوضع العربى فيها مساويا تمام المساواة للوضع الاسرائيلى فى الضفة الغربية ..

وحينئذ تكفل حرية الزيارة للأماكن المقدسة ، وهى حرية رعاها العرب المسلمون والمسيحيون دائما .. ومن الممكن إقامة اجراءات مشتركة لكفالة السلام فى مدينة السلام ..

وذلك أمانى عادلة .. وهى قريبة المنال ما اتحد العرب ، ووحدوا قواهم واستثمروا إمكاناتهم الوفيرة .